

الفصل العاشر

بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي *

طبيعة الحقائق التاريخية - أنواع الحقائق - موازنة الحاضر بالماضي .

بعد التثبت من صحة الحقائق التي تقدمها الأصول والمصادر التاريخية ، ينبغي على الباحث في التاريخ أن يقوم بسلسلة من عمليات التركيب أو البناء (synthesis) . ودراسة هذه العمليات من أهم المراحل في الإلمام بمنهج البحث في علم التاريخ ، وهي مرتبطة بنوع المادة التاريخية التي يتوصل إلى جمعها الباحث في التاريخ .

وكما أشرنا ، لا يجوز أن يضع الباحث خطة مثالية للموضوع الذي ينوي كتابته ، فقد لا تكفي المادة التاريخية التي يمكنه الوصول إليها لتحقيق هدفه ، أو قد يجمع مادة جديدة تخالف ما كان يتوقع جمعه . ومن الطبيعي أن يضع الباحث خطة تقريبية لموضوع دراسته ، على أن تظل قابلة للتعديل والتغيير بحسب المادة التي تُصبح تحت يده .

وعلى الباحث أن يبدأ بالنظر إلى نوع الحقائق التاريخية التي جمعها ، ولا ريب في اختلاف هذه الحقائق وتنوعها .

واليك أمثلة لما يمكن أن يجده منها :

١ - قد يستخرج الباحث من أصل تاريخي واحد حقائق متنوعة ، عن الخط ، وعن اللغة ، وعن العقائد ، وعن العادات ، وعن الحوادث ، وعن النظم . . . وفي أحوال كثيرة تصل الحقائق إلى الباحث في التاريخ دون ترتيب أو تقسيم . وهذا المزاج من الحقائق غير المتجانسة ، هو من أهم الخصائص التي تتميز بها الحقائق التاريخية بالنسبة لحقائق العلوم الطبيعية . فلا بد من تقسيم الحقائق التاريخية إلى أقسام بحسب أنواعها . كما سنعرف ذلك بعد .

٢ - تبدو الحقائق التاريخية على درجات متفاوتة من التعميم أو التخصص ، من الحقائق العامة التي تشمل شعباً بأسره ، أو التي دامت عدة قرون ، مثل العقائد والنظم ، إلى الحوادث الخاصة أو الأفعال العابرة الصادرة عن فردٍ ما . من حركة أو كلمة . وهذا من أوجه الخلاف بين الحقائق التاريخية وحقائق العلوم الطبيعية . فينبغي على الباحث أن يضع الوقائع المتشابهة في مستوى عمومها أو خصوصها في صعيد واحد . بقدر المستطاع .

٣ - تحدد الوقائع التاريخية بمكان حدوثها وزمانه . وإذا ألغينا المكان والزمان بالنسبة لها فقدت مُشخصاتها التاريخية ، ودخلت في نطاق المعلومات الإنسانية العامة مثل (الفولكلور) الذي لا تُعرف أصوله على وجه التحديد . والباحث في التاريخ مضطر إلى أن يدرس الحقائق المتعلقة بالمكان والزمان في العصور المختلفة ، كلاً على حدة .

٤ - تختلف الروايات التاريخية وما تتضمنه من الحوادث في مدى احتمال الصدق فيها . فتوجد بينها الروايات الثابتة . أو المُحتملة الصدق ، أو الضعيفة أو المشكوك في صحتها . كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ولعل بعضها يشبه الحالات (الإكليبكية) التي تُنشر في المجلات الطبية قبل أن يتمكن العلماء من البرهنة عليها ، حتى تُدرج في نطاق الوقائع العلمية الثابتة .

وبهذا نجد أن التركيب أو البناء التاريخي يتم عن طريق تجميع أقدر من الحقائق ، المشتبهة بدورها على كثير من الجزئيات التفصيلية مُتنوعة . والتي تشبهه أو تختلف أو تتفاوت من حيث موضوعها ومدلولها ، ومن حيث درجة عموميتها أو تخصصها . وفي مستوى تشككها أو ثبوتها .

ويستخدم المشتغلون بالعلوم الطبيعية سلسلةً من الأسئلة لمعية ، التي تتطلب الإجابة عنها بطريقة منهجية . بناء على التجربة والملاحظة المباشرة ، بغية الوصول إلى النتائج العلمية المطلوبة أو التي يمكن العمل إليها . ولكن ذلك من غير الميسور للباحث في التاريخ أن يتبع هذه الطريقة على النحو الذي يفعله الباحثون في العلوم الطبيعية . فقد اعتاد كثير من الباحثين في التاريخ تباع طريقة المُغنين ، فيأخذون التفسيرات التي تلفت نظرهم لأسباب شخصية في الغالب ، ويضربون

إليها ما يعنّ لهم من الحواطر . ويعرضون المعلومات التي يعثرون عليها بلغتهم وأسلوبهم . ومع ذلك فمن المناسب أن يتبع الباحث في التاريخ طريقة السؤال والجواب . بالصورة الممكنة له ، وفي نطاق الشخصيات الأساسية للوقائع التاريخية ، التي هي مخالفة لحقائق العلوم القائمة على الملاحظة المباشرة . وذلك حتى لا يضلّ الباحث في التاريخ في ثنايا تفاصيله المختلطة .

ونجد في علم الحيوان الوصفي مثلاً ، أنه يمكن ملاحظة الحيوان وتشريحه ، وبعد ذلك يمكن جمع أجزائه وتركيبها وجعلها تكون شكلها السابق على وجه التقريب . فهاتان العمليتان هما التفكيك أو التحليل والتركيب الحقيقيان . ولكن الحال مختلفة بالنسبة لعلم التاريخ . إذ لا يكون التحليل والتركيب فيه شيئاً ملموساً على النحو المشار إليه ، بل يكون على سبيل الاستعارة فحسب .

وكما عرفنا ، لا يمكن للباحث في التاريخ أن يرى وقائع التاريخ رأى العين ، وهو لا يرى منها شيئاً حقيقياً ملموساً سوى الورق والكتابة وآثار الإنسان ومخلفاته . ومن طريق دراستها يحاول أن يسترجع في ذهنه صور الماضي وأخباره . ولكي نجعل هذه الصور والأخبار واضحة ينبغي أن نسعى إلى معرفة الأثر الذي تحدثه كتابات الماضي ومخلفاته في نفس القارئ الدارس .

وتقدّم الأصول التاريخية للباحث في التاريخ معلومات يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أنواع من الحقائق :

١ - كائنات حية وأجسام مادية : فالوثائق مثلاً تعرفنا بوجود بعض الأشخاص وبعض منتجات الفنون أو الصناعات . ومن البديهي أن الباحث يجد أمامه الحقائق خلال تصوّر كاتبها وليست الحقائق في ذاتها . فهيكل أورشليم القديم مثلاً كان شيئاً مادياً ماثلاً أمام الأعين ، ولكننا لا نستطيع رؤيته الآن . وكل ما يمكن أن يفعله الباحث هو أن يُكوّن في ذهنه صورة عقلية ، مشابهة على نحوٍ ما ، للصورة التي وُجدت في أذهان من رآه وسجلوا وصفه بالكتابة .

٢ - أفعال الإنسان : تسجل الوثائق والأصول معلومات عن أفعال أو أقوال الناس في الزمن الماضي ، والتي يعرفها كاتب الأصل التاريخي عن طريق المشاهدة أو السماع . ولكنها أمام الباحث في التاريخ لا تزيد عن كونها مجرد صور ذاتية

مستمدة من الكتابة . فمثلا لا يجد الباحث غير صورة عقلية عن حادث مقتل يوليوس قيصر ، وهو بإزائه لا يستطيع أكثر من أن يتخيل وقوع ذلك الحادث من خلال الأصل التاريخي الذي وصل إليه .

٣- الدوافع والتصورات : تحرك الإنسان دوافع خاصة للتصرف على نحو معين . ويدل الدافع على المحرك الذي يدفعه إلى العمل ، كما يدل على تطبيق الرأى أو تحقيق الهدف القائم في ذهن الإنسان في اللحظة التي يؤدي فيها عملا معيناً . وهناك أنواع من الدوافع الإنسانية . فمنها دوافع وتصورات تقوم في ذهن كاتب الأصل التاريخي ويعبر هو عنها في كتابته ، ومنها دوافع وأفكار رجال العصر الذي عاش فيه ذلك الكاتب ، ومنها دوافع يمكن أن يفترضها الباحث في التاريخ ، بشأن ما ورد في الأصل التاريخي ، على غرار ما يحدث في البيئة المعاصرة . ومع أن الباحث في التاريخ لا يصل إلى حوادث الماضي إلا عن طريق الخيال ، فإن هذا الخيال ليس خيالا محضاً ، إذ أنه مستمد من وقائع حدثت فعلا ، ويستطيع الباحث أن يكون عنها في ذهنه صورة مقارنة ، بناء على وجود نوع من الرابطة والاتصال بين الحاضر والماضي . غير أن هذا التصور يعرض الباحث للوقوع في الخطأ ، لأن التشابه بين الحاضر والماضي ليس مطلقاً ، والباحث لم يجرب بنفسه الحالات العقلية التي مرت برجال الأمم ، ولكنه لا يجد غير طريق الخيال والتصور في هذا الصدد . ويلاحظ أن عناصر الاختلاف بين الحاضر والماضي ، هي من بين الأمور التي تجعل دراسة التاريخ دراسة شائقة ممتعة .

وكيف يتسنى للباحث في التاريخ أن يتصور على نحو قريب من الحقيقة ظروف الماضي التي تختلف عن ظروف الحاضر ؟ الذي يحدث عملياً هو أن الباحث عندما يقرأ نصاً تاريخياً عن تاريخ الفرنجة مثلا ، تتكون في ذهنه لأول وهلة صورة مضطربة عنهم ، مستمدة من التشابه المتخيل بين الحاضر والماضي . ثم تزداد هذه الصورة وضوحاً ودقة ، بتصنيف المعلومات وإبعاد الأخبار الكاذبة وتفهم الأخبار الصحيحة . ومن المحتمل أن يكون الباحث قد رأى أشخاصاً ذوي شعر أحمر ، ورأى في بعض المتاحف شيئاً من أدوات الحرب عند الفرنجة أو على الأقل

شيئاً من صورها . فيضمّ الباحث ما استمده من هذه الأدوات أو الصور إلى ما أخذه من قراءته ، لكي يصحح أخطاء الصورة العاجلة التي تكوّنت في ذهنه حينما قرأ لأول مرة نصّاً تاريخيّاً عن الفرنجة .

وعلى ذلك يصبح تصوّر التاريخي مجموعةً من الظواهر المستقاة من عدة نواح . ولا يكتفي تصور الأشخاص أو الأفعال أو الأشياء كعناصر مستقلة بعضها عن بعض ، لأن كلاً منها في ذاته يكون جزءاً من مجموع عام . وتقوم على أساسها جميعاً حوادث التاريخ ، بل وسير الزمان وتطوّر البشرية . وبهذا ينبغي على الباحث أن يحاول تصوّر العلاقة القائمة بين مختلف العناصر أو المسائل المفردة : بين الأفكار والآراء والأقوال والأفعال ، وبين الشعوب والحكومات والنظم والقوانين والاقتصاديات والحروب والفنون والعلوم والآداب . . .

ويمكن أن تلخص عمليات التركيب أو البناء التاريخي في بعض مراحل . وعلى الباحث أن يجمع خلالها العناصر المأخوذة من أصول تاريخية متعددة ، ويحاول أن يكونَ عنها صورة عقلية تشابه بقدر الإمكان الصورة التي وُجدت في ذهن شاهد العيان أو كاتب الأصل التاريخي . ثم يقسّم الباحث الحقائق إلى مجموعات على أساس من التشابه القائم بينها ، وعلى أساس المسائل المتعلقة بنقطة أو حادث معين . وحينما تصادف الباحث فجوات صغيرة أو كبيرة ، فعليه أن يحاول ملأها بالاستنتاج العقلي المستمد من الحقائق التي توفرت لديه ، وعليه كذلك أن يستخرج من هذه الحقائق صفاتها العامة ، وعلاقة بعضها ببعض ، ويؤدى ذلك في النهاية إلى كتابة التاريخ .

وهذه السلسلة من العمليات التي يسهل تصوّرها ، لم تُطبّق كلها أو بعضها على الوجه الأكمل ، في كثير من المؤلفات التاريخية . وبذلك يتضح لنا أن هذه العمليات التي تبدأ بالعثور على الأصل التاريخي ، وتنتهي إلى كتابة التاريخ ، تقتضى الدقة والحذر والجهد والصبر وتوفر الملكات الخاصة بمثل هذا العمل ، حتى إنه قد يتعذر على شخص واحد أن يقوم بكل هذا العمل الخاص بموضوع أو مسألة تاريخية بالذات . ويلاحظ أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص يستلزم صفات وملكات متشابهة فيما بينهم ، ويقتضى فهماً عاماً بينهم كباحثين ، وقد

تتوفر هذه المسألة أو تلك ، وقد لا تتوفر على نحو مقنع ، بما تستلزمه طبيعة مثل هذا النوع من العمل . لذلك فلا يمكن أن يُستكمل بحث مسألة تاريخية ما ، في وقت محدد ، ولكن باب البحث يظل مفتوحاً أبداً للمزيد من البحث والتحرى في المستقبل .

ولا يوجد باحث في التاريخ يمكنه أن يثق بأقوال غيره بنفس الثقة التي يثق بها الباحثون في العلوم الطبيعية بعضهم ببعض ، وذلك لأن الباحث في التاريخ لا يمكنه أن يعرف كل التفاصيل العملية ، وجميع الطرق التي اتبعها غيره ، للوصول إلى النتائج التي استخلصها . ولا شك أنه يوجد قدر من الثقة يزيد أو ينقص بين الباحثين في التاريخ في زمن واحد أو في أزمان مختلفة ، ولكنها لا تبلغ ذات الثقة التي توجد بين الباحثين في العلوم الطبيعية . وفي بعض الأحيان يرجع المؤرخ المدقق إلى الأصول التي رجح إليها غيره ، لكي يثبت بنفسه من بعض النتائج التي وصل إليها . ولا يتصور أن يكون مثل هذا العمل عسيراً في كل الأحوال . فهو يصبح سهلاً أحياناً في نقطة محددة توجد عنها مجموعة وثائق معينة بالذات . ولكن الأمر يصبح صعباً بالنسبة للموضوعات الطويلة أو التي توجد عنها أصول تاريخية وافرة . والثقة المطلقة بالغير في هذا الصدد تؤدي إلى الخطأ ، وعدم الثقة يجعل البحث غاية في العسر .

وعلى كل حال ينبغي أن تُقرأ مؤلفات المؤرخين بقدر متفاوت من الحذر ، بحسب مستوى كل مؤرخ منهم ، وهذا معناه العودة لبحث ما سبق بحثه . ولكن مراجعة هذه المؤلفات ستكون أسرع من العمل الأساسي الذي قُضي في الدرس والبحث الذي أدى إلى كتابتها ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، بناء على ما تثيره بعض تفاصيلها من الشك أو التساؤل .

ولا يضير ذلك علم التاريخ في شيء . وهذا يعني أن موضوعاته ومسائله ستكون عرضةً لأن تُبحث من جديد ، بطريقة أو بأخرى ، بناء على توفر الظروف التي تبرر إعادة درسها وبحثها . ولذلك فلا يجوز أن يتصور باحث في التاريخ أنه كتب الكلمة النهائية في موضوع ما ، وأنه اختتم العلم بشأنها ، إذ أن هذا ليس من حقه ، والأمر متروك للباحثين الآخرين في زمنه أو في المستقبل ، ولتقديرهم

إمكان بحثه - من عدمه - بناء على منهج البحث في علم التاريخ . وإن منَّ يُدخاله مثل هذا التصوّر لِيُحكّم على نفسه بنفسه ، بعدم إدراكه لمبادئ علم التاريخ ، بل وبعده عن أبسط قواعد التفكير أو الفهم التاريخي ، مهما يكتب ويطلع ، ومهما يعتقد في نفسه أو يعتقد فيه غيره من غير العارفين بقدر علم التاريخ ومضمونه . ولا عجب إذا وُجدت مسائل تاريخية تظهر عنها عشرات أو مئات أو ألوف من المؤلفات التي يقتضى البحث التاريخي أن تُكتب على مدى السنين والأجيال والقرون .